مجلة التعليمية
ISSN: 2170-1717
EISSN 2602-6015

المجلد 15 / العـــدد: 01 (2025)، ص 685 – 697

توظيف العجائبي في رواية "عُشبُ الليل" لإبراهيم الكوني.

The use of the miraculous in the novel “Night Grass” by Ibrahim Al-Koni.

أ. سنوسي شريّط*

كلية الآداب واللغات جامعة معسكر

Senouci.chereit@univ-mascara.dz

تاريخ الاستلام: 2025/04/05 تاريخ القبول: 2025/05/23 تاريخ النشر: 2025/06/01

ملخص:

تهدف هذه المقالة العلمية الى الانفتاح على عوالم العجائبي والغرائبي في نصوص الروائي الليبي "إبراهيم الكوني"، بغية معرفة دلالات ومقاصد الكاتب من نزوعه نحو هذا الاتجاه الروائي الذي يمتلك توجُّهاً سردياً مغايراً للاتجاهات الأخرى، على غرار: الاتجاه الواقعي، الاتجاه التاريخي، الاتجاه النفسي والاتجاه الوجودي....وغيرها من الاتجاهات الروائية التي تبدو معقولة من حيث اتكائها على أحداث وشخصيات وعوالم زمنية ومكانية أقرب للمنطق والتفاسير المعقولة والمقبولة لدى القراء، عكس الاتجاه العجائبي الذي ينفرد بعوالمه الخرافية والغريبة، تتأسس على كل ما هو غريب وعجيب مما يستدعي التساؤل عن مقاصده وغاياته.

انطلاقاً من هذا التصور المعرفي، تحاول هذه المقالة العلمية التطرق إلى توظيف العجائبي في رواية (عُشبُ الليل) للروائي الليبي (إبراهيم الكوني)، خصوصاً وأن هذا الكاتب انفرد بأسلوب سردي مغاير عن بقية أساليب الكتابة الروائية العربية. يرتكز بالأساس على المرويات الأسطورية والخرافية في جلّ نصوصه السردية التي ألّفها على مدار50 سنة. متخذاً من الصحراء وعوالمها الأسطورية المليئة بمظاهر السحر والجان والعفاريت فضاء لسرد أحداثه وشخصياته المتعددة والمتنوعة. وهذا ما سنحاول في هذه المقالة تناوله بالاعتماد على رواية (عُشْبُ الليل) التي تبقى رواية فريدة ومغايرة من حيث تيمتها وأسلوب كتابتها.

. **الكلمات المفتاحية:** النص–السرد– العجائبي–الغرائبي–الرواية–التفسير–الرؤيا.

Abstract:

This scientific article aims to open up to the world of the fantastic and the strange in the texts of the Libyan novelist Ibrahim Al-Koni, in order to know the details and intentions of the writer from his tendency towards this novelistic trend that has a narrative orientation that differs from other trends, such as: the realistic trend, the historical trend, the

* أ. سنوسي شريّط.

psychological trend, and the existential trend....and other novelistic trends that seem reasonable in terms of their reliance on events, characters, and temporal and spatial worlds that are closer to logic and clear and acceptable interpretations, unlike the fantastic trend that is unique in its mythical and strange worlds, based on everything that is strange and strange that calls for questioning its intentions and goals. Based on this cognitive concept, this article attempts to address the use of the fantastic in the novel (Night Grass) by the Libyan novelist (Ibrahim Al-Koni), especially since this writer has distinguished himself with a narrative style that differs from the rest of the styles of Arabic novelistic writing. It is based primarily on mythical and legendary narratives in most of his narrative texts that he composed over the course of 50 years. Taking the desert and its mythical worlds full of manifestations of magic, jinn and goblins as a space to narrate his events and multiple and diverse characters. This is what we will try to address in this article based on the novel (Night Grass), which remains a unique and different novel in terms of its theme and writing style.

Keywords: text-narrative-wonderful-strange-novel-interpretation-vision**.**

1.مقدمة:

يمثّل الروائي الليبي "إبراهيم الكوني" أيقونة الرواية العربية المعاصرة، وواحداً من أبرز الكتّاب العرب في الوقت الراهن. لما أبدعه من متون سردية كثيرة، ومتنوعة، ومتفردة شكلاً ومضموناً، جعلت الناقد "جاد الحاج" "يصفه بالنهر السائل الجارف، لعدم قدرتهم على مجاراته أو إيقافه، يقول في هذا الشأن: أوقفوا إبراهيم الكوني لنتابعه. ما هذا النهر؟ بعيداً ومباغتاً منذ البداية (...) رواياً حكاية البدء قبل أن تبدأ الحكاية"[1].

أسهم "إبراهيم الكوني" كثيراً في تطوير وازدهار الرواية العربية، ودفعها نحو تحقيق قفزة نوعية متميزة على المستوى العالمي. وهذا بفضل التراكم الروائي الكبير والمتواتر بشكل مستمر الذي أبدعه لحد الآن، حيث بلغ إنتاجه أكثر من50 رواية. وأيضاً بفضل طبيعة الكتابة السردية التي شيّدها على مدار50 سنة(هو من مواليد1948)، حيث استطاع أن يبدع أسلوباً جديداً في الكتابة يقوم أساساً على ثنائية الصحراء/الأسطورة باعتبارها محوراً جوهرياً في حياة الإنسان، تشي بخصائص فكرية وفنية وجمالية لهذه الثنائية. متخذاً من عالم الميثولوجيا مورداً/منبعاً لتيماته وموضوعاته التي عالجها بإسهاب فكري ومعرفي، مركّزاً في الآن ذاته على إبراز سكان "طوارق" وهو واحد منهم، محاولاً التطرق إلى هويتهم وخصائصهم الاجتماعية ورؤاهم الفكرية ونظرتهم إلى الحياة، مبرزاً بكثير من الدقة والتفصيل السردي "عاداتهم ومعتقداتهم الموروثة والمقدسة. إن كل شيء في حياة القبيلة مقدس، بدءاً من اللباس، وانتهاء بطقوس الزواج. وقد عرض إبراهيم الكوني في رواياته لهذه العادات والمعتقدات والتقاليد، بدافع تعريف القارئ بما يجهله من حياة القبائل في الصحراء الليبية الكبرى، مركزاً اهتمامه على قبيلة "الطوارق" التي ينتمي إليها بالولادة"[2]. في هذا السياق يرى الناقد التونسي الراحل "بن جمعة بوشوشة" أن تجربة إبراهيم الكوني "هي تجربة كتابة تنبني على الحفر في الذاكرة الطوارقية بغية الكشف عن مخزونها التراثي في مختلف تنويعاته: الاجتماعي، والعقائدي والتاريخي والفكري والثقافي، والأسطوري، والتشكيلي، وتصوير واقع مجتمع

الطوارق الراهن في ثابته كما في متحوله، الذي يسمه التأزم نتيجة الصراع بين قيم العراقة والحداثة، الأصالة والمعاصرة، المحافظة والتحرر، الارتحال بين أطراف الصحراء الكبرى، وبداية التحول عنها والاستقرار بالمدن، حياة طوارقية ثرية ومتنوعة، سليلة تاريخ طويل ضارب في القدم، تلتبس فيه التخوم بين الواقع والأسطورة، الحقيقة والخرافة، وقد ظلّت إلى الأزمان الحديثة موضوعاً يغري الرحالة الأجانب بالاكتشاف، والضرب في مجاهله، لما يتوفر عليه من عناصر الدهشة، والغرابة والعجيب والفتنة والإلغاز"[3].

2.رواية"عُشبُ الليل": بين الفلسفة وعلم النفس:

كتب "إبراهيم الكوني" رواية "عُشْبُ الليل" سنة1997، تضم184 صفحة من الحجم المتوسط. رواية مقلقة ومربكة ومستفزة، لكونها تتناول قضية خطيرة جداً، حيث ترصد علاقة اعتداء الجد("**وان تيهاي**" وهو بطل الرواية)، والذي يعني "سليل الظلمات"/أو "سليل الأدغال"، على ابنته، ثم على حفيدته جنسياً دون مراعاة النواميس والأعراف والشرع. وقد صاغها الروائي إبراهيم الكوني في قالب أسطوري عجائبي من خلال التركيز على "عُشْبَة" لها مفعول "الجان"، فسرعان ما أكل منها الجد "وان تيهاي حتى حرّكت فيه الغريزة الجنسية، وجعلته يسارع إلى المرأة مهما كانت طبيعتها، إلى ممارسة الجنس معها. حتى وقع على ابنته ثم على حفيدته. لتكون نهايته مأساوية على يد حفيدته التي لم تتقبل هذا الفعل، حيث طعنته بخنجر(المدية)، ثم انتحرت.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الروائي "إبراهيم الكوني" تطرّق إلى واقع "خرق الناموس" الذي يؤمن به أهل "الطوارق" ويقدّسونه. فالجد "وان تيهاي" حاول خرق النواميس الطبيعية والإنسانية من خلال النزوع نحو القيام بأفعال ضد الطبيعة. والناموس هو منظومة الكون البدائية التي فطر عليها الإنسان. منها اقترانه بأَمَةٍ سوداء، وهو أحد النبلاء، وأيضاً قيامه بممارسة الجنس مع ابنته، ثم مع حفيدته. هذا بفعل أثر العشبة التي تناولها، والتي حرّكت فيه الغريزة الجنسية.

إنّ رواية "عشب الليل"، تتقاطع فكرتها الجوهرية بين الفلسفة وعلم النفس، إنها تحمل في مضمونها فلسفة مرتبطة بأهل "الطوارق"، وإيمانهم بأعرافهم ونواميسهم التي لا يمكن بحال من الأحوال تجاهلها أو القفز عليها أو التمرد ضدها. لذا نجد الروائي في بداية النص يوظّف مقولة فلسفية ل"**هولدرلين**" ليوضّح أن الأب الذي يمتلك السلطان، يمتلك كلّ شيء. وبالتالي فإن إبراهيم الكوني يرجعنا إلى نظام الأبوية والذكورية في الأنظمة القديمة (عبر الحضارة الإنسانية) عندما كان الأب هو السلطان وهو الدكتاتور الذي ترجع إليه كل أمور الحياة. ليعيد تمثل الصراع القائم بين الأمومية والأبوية، ليطرح مسألة الزعامة بينهما من جهة، ومن جهة أخرى ليطرح مأساوية القرار الخاطئ ضد خرق الناموس. وليبيّن بشكل واضح أن "مَنْ يدنّس المقدّس تلحقه اللعنة وفي النهاية يكون الموت الحتمي هو المقدر عليه"[4]. وهذا ما وقع للبطل "وان تيهاي".

3.العتبات النصية: يرى الناقد "الرشيد بوشعير" أن العتبات النصية هي "تلك القناديل المعلّقة على بوابات المتن الإبداعي التي تضيء بعض دروبه في ولوجه إلى دهاليز ذلك المتن من مثل العنوان والإهداء والمقدمات والأقوال المأثورة التي ترصع بها نواصي الفصول، وهو ما ينظر إليه الناقد الفرنسي جيرار جينيتG.Genette بوصفه توازياً

نصياًParatextualité"[5]. فقد أصبحت "العتبات الخارجة للنص جزءاً من بنية النص وليست ترفاً أو شيئاً إضافياً يمكن الاستغناء عنه ، خاصة وأن الروائيين في الحساسيات الجديدة أصبحوا يمنحونه مكانة خاصة، ويعطونه أهمية بالغة في البناء والاختيار"[6].

وانطلاقاً من أهمية العتبات النصية بوصفها علامات إيضاحية للنص. نجد أن نصوص إبراهيم الكوني تكثر فيها العتبات النصية، منها: عتبة العنوان، عتبة الإهداء، عتبة النصوص الموازية، عتبة العناوين، وأيضاً الرسومات والألوان المتعلّقة بواجهة غلاف الرواية). وهذه العتبات تشكّل عنصراً جوهرياً لدى الكاتب باعتبارها مفاتيح بيد القارئ تسهم في سبر أغوار النص، وتساعد أيضاً في تقريب المعنى والدلالة التي تحملها كلّ رواية. وهذا ما يركّز عليه إبراهيم الكوني في كل رواياته التي ألّفها.

1.3.عتبة العنوان: أطلق الروائي "إبراهيم الكوني" اسم "عُشبُ الليل" على روايته ليكون عنواناً رمزياً لتيمة العجائبي. فالعشب يرمز إلى النبات، والعشبة التي تتحدث عنها الرواية هي نبتة تنبت في الوديان. ولكن الغريب في هذا العنوان هو أن هذه العشبة ربطها بزمن الليل، ومن خلال قراءتنا للرواية نكتشف أن العشبة تظهر في الليل وتختفي في النهار دون سبب واضح. وهذا ما يطرح تساؤلات عدة، ويثير حيرة وترددا عن طبيعة الاختفاء والظهور لهذه العشبة. وأيضاً لمفعولها السحري، حيث تساعد على زيادة الغريزة الجنسية.

2.3.عتبة النصوص الموازية: تعتبر النصوص الموازية أو التعالقات النصية تلك النصوص القصيرة أو الجمل المركزة للفلاسفة والمفكرين والأدباء والنقاد والعلماء. والتي يسترشد بها الروائي للتلميح بها عن المقصد الذي يريده في نصه. ولهذا نجد إبراهيم الكوني يعتمد على النصوص الموازية كعتبة ضرورية تسهم في فتح مغالق النص، وتسهل عملية تقريب المقاصد والمعاني المختفية ضمن متن النص[7].

اعتمد "إبراهيم الكوني" في رواية "عشبُ الليل" على نصين قصيرين. لهما علاقة وطيدة بالرواية:

الأول: (من نشيد باتموس) لهولدرين:

"الأب يحب– الأب الذي يملك سلطاناً على الكل.

الأب يحب فوق كل شيء،

أن يخضع لمشيئة الحرف الصارم كل شيء"

الثاني: (من رواية الإخوة كارامازوف) لدي ستوفسكي:

"إذا لم يوجد الله، فإن كل شيء يباح حتى الجريمة".

نلاحظ من خلال هذه النصوص التي وظّفها الروائي إبراهيم الكوني، أن دلالتها تكمن في متنها الذي تحمله داخلها. فالنص الأول نص فلسفي يحيل على سلطة الأب ودكتاتوريته. فامتلاك السلطة تؤدي إلى امتلاك كلّ شيء. وهذا ما نجده

في متن الرواية عندما امتلك الجد "وان تيهاي" السلطان، امتلك كلّ شيء، امتلك الحب، كما أراد امتلاك الجسد حتى من أقرب أقاربه، لذا اعتدى جنسياً على ابنته ثم على حفيدته.

أما النص الثاني فهو مقطع من رواية "الإخوة كارامازوف" للروائي الروسي دي ستوفسكي. في هذا النص معادلة فلسفية أيضاً. فغياب الإله أي القوانين التي أقرتها التشريعات السماوية (الكتب الدينية)، فإن كلّ شيء يصبح مباحا للفعل، حتى الجريمة تصبح مباحة نظراً لغياب القوانين والنظم. وهذا أيضاً ما وقع في رواية "عشبُ الليل"، فحينما غاب الناموس الشرعي لأهل "واو"، والأعراف والقوانين الصارمة، أصبح كلّ شيء مباحا، فكانت الجريمة قائمة، إذ اعتدى الأب جنسياً على ابنته ثم على حفيدته.

من جهة أخرى تنوس رواية "عشبُ الليل" الانفتاح على عوالم النفس البشرية من خلال شخصية "وان تيهاي" التواقة لجوع جنسي شبقي بفعل مفعول العشبة. إن هذه الرواية تتناص بشكل غير مباشر مع (عقدة أوديب) و(عقدة الكترا)، حيث يحضر تعلّق الابنة بالأب وامتلاكها له، بعد أن أقنعها أن الحب للأب. ولكن ليس على الطريقة الإغريقية. وإنما فِعلُ التملك كان طرفه الأساسي هو الأب/الجد "وان تيهاي" الذي قرر امتلاك البنت ثم الحفيدة بقوة السلطة والزعامة.

4.العجائبي في رواية "عُشبُ الليل":

تسود روايات "إبراهيم الكوني" عوالم السحر والأسطورة والعجائبية والغرائبية، فهي كلها تحمل سمات فنية وجمالية تجعل القارئ يهيب من قراءتها بسبب هذه العوالم السحرية وغير المألوفة. يقول الناقد فخري صالح:" يتميز عمل إبراهيم الكوني الروائي بقيامه على عدد من العناصر المحدودة، على عالم الصحراء بما فيه من ندرة وامتداد وقسوة وانفتاح على جوهر الكون والوجود. وتدور معظم رواياته على جوهر العلاقة التي تربط الإنسان بالطبيعة الصحراوية وموجوداتها وعالمها المحكوم بالحتمية والقَدَر الذي لا يرد. في هذا العالم تبدو العناصر، والعلاقات التي تربط بينها، ثابتة لا ينتابها التغير، ويحكم على الشخصية المحورية في العمل بالموت كأضحية تجلب الخصب إلى الطبيعة الصحراوية القاحلة، فيهطل المطر وتتصالح الصحراء الجبلية مع الصحراء الرملية كما تقول الأسطورة التي يوردها الكاتب في روايته نزيف الحجر، ص(30،31)"[8].

فمعظم الروايات التي ألّفها إبراهيم الكوني نجد السرد فيها "يمتزج فيه الواقعي بالأسطوري والعجائبي، يصوّر من خلاله صراع الإنسان وعلاقته بالحيوان، وباقي الكائنات. فيحتل العنصر السحري والخارق مساحة كبيرة في نصوصه، ويتوحد من خلالها مع هذه الكائنات"[9].

ورواية "عشبُ الليل" واحدة من هذه الروايات التي تُثير الخوف في نفسية متلقيها/قارئها بسبب أجوائها العجائبية التي تحيل إلى الخوف والحيرة والتردد والتساؤل. انطلاقاً من شخصياتها(وان تيهاي، الحكيم بوبو، العرافة، الفتاة/الحفيدة، الأم، العبد "آفر"). مروراً بأحداثها الغريبة والعجيبة منها ظهور "عشبة" في الوادي في الليل واختفائها في النهار، ومفعولها السحري، حيث تسهم في تحريك غريزة الجنس لدى آكلها، وصولاً إلى فضاءاتها السحرية أيضاً القائمة على الأجواء العجائبية منها "وادي الجن" الذي كان يذهب إليه البطل "وان تيهاي"، وأيضاً الضريح الذي يمثّل الآلهة "تانس".بالإضافة إلى قَطْعِ الزعيم "وان تيهاي" لسان عبده "آفر"، ثم عضوه التناسلي.

تركّز هذه الرواية في مضمونها على آثار العشبة التي اكتشفها "وان تيهاي" عندما كان يتجوّل في الوديان. ومن ثم، فإن العجائبي يتمثل في هذه العشبة، لكونها أثارت حيرة وتردداً وتساؤلات لدى البطل "وان تيهاي"، وأيضاً لدى الفتاة الحفيدة بعد أن اعتدى عليها، وهذا ما أرادت أن تكشفه في بداية الرواية، عندما قررت الهروب من البيت، وخرجت تصرخ في الشارع محاولة كشف المستور:

"في ذلك الوقت استمر بلاغ الفتاة. كانت تلفظ الزبد، وتتلفت حولها دون أن تستقر عينها على الجموع، تتلفت بعينين غائبتين لتخبر القوم بالنبأ:

-نعم. لم يستح لم يستح ولم يعجز رغم الزمان الذي وهبه لقب الجدّ. لم يستح فأتى مع الحفيدة منكراً، ولم يعجز لأنه لا يكف عن أكل تلك العشبة اللعينة التي لا يعرف سرها سواه. اسمعوا يا أهل واو ! إذا لم تفعلوا شيئاً يقتلني في الليالي ! فاسمعوا ! اسمعوا يا أهل واو !

في البدء لم يفهم الناس. وعندما فهموا مع التكرار وعبارات الإيضاح، استنكر العقلاء، وضحك الدهماء، وبكى ضعاف النفس، وأعلن الحكماء، أن الأمر علامة بلاء"[10].

فالفتاة استغربت هذا الفعل المنكر، وأيضاً بدت حائرة أمام هذه "العشبة" اللعينة مثلما وصفتها وهي مهددة بالقتل نتيجة مفعول هذه "العشبة". ونجد أيضاً الحيرة والتردد تمتد إلى امرأة من الأغراب حينما اقتربت من الفتاة لتستفهم منها قولها الغريب: "تكرر النداء الجسيم ففقد بالتكرار، وقع البدء. تلقفه أهل الفضول، فرددوه فيما بينهم، وتجاذبوه، وتندروا به، وابتذلوه، فضاع فيه الهول حتى أن امرأة (قيل إنها من بنات الأغراب) تقدمت من الفتاة وسألت بلهجة غريبة.

-هل تقولين إن معمرا في عمر جدك ما زال قادراً على معاندة صبية مثلك؟

التفتت الفتاة إلى امرأة الأغراب. تراجع ايماء الغياب في المقلتين لوهلة. ازدادت حدقتها اتساعاً قبل أن تقول:

-أستطيع أن أحتمل أقوى رجال الصحراء إلى الأبد، لكني لا أستطيع أن أحتمل شيخاً أكل من تلك العشبة المشؤومة ساعة واحدة. أعرف أن المرأة لم تخلق امرأة إلا لكي تحتمل الرجل، إلا لكي تحتمل الرجال، كل الرجال، ولكن السر في العشبة.

أسرعت المرأة اللئيمة الخطو جاورت الفتاة. تساءلت بإلحاح حقيقي:

-خبريني عن العشبة ! ما لون العشبة؟ هل لها ساق طويلة؟ هل لها أوراق كأجنحة الجراد؟

تجاهلت الفتاة السؤال، وعادت تردد البلاغ. ولكنها توقفت فجأة، وحدقت في المرأة بفضول. توقفت القافلة أيضاً ازداد في عينيها إيماء الذهول:

-لا أعرف للعشبة لوناً ولا طولاً ولا شبهاً عشبة تبدو ككل الأعشاب ولكن لها مفعول الجن !

تحركت الفتاة فتحرك الجمع صاحت امرأة الأغراب وهي تحاول اللحاق بالفتاة:

-ألن يكون "آسيار" هو تلك العشبة؟ ألا يقال إن "آسيار" نبتة الأسحار؟"[11].

أثارت العشبة تساؤلات عديدة، سواء لدى الفتاة الحفيدة أو لدى امرأة الأغراب أو لدى سكان القرية، باعتبار أن هذه العشبة غير عادية، فهي كما وصفتها الفتاة لها مفعول الجن. وهذا ما جعل المرأة الغريبة تبدي دهشة من هذه العشبة وتعتبرها واحدة من الأعشاب التي تنتمي الى "آسيار". و"آسيار" هي "نبتة أسطورية ويعتقد أنه السيلفوم، وقد انقرض من الصحراء الكبرى منذ القرن الثالث قبل الميلاد"[12]. فقد شكّلت هذه النبتة أمراً عجائبياً لدى أهل "واو" باعتبارها أحدثت أمراً غريباً غير مألوف، فهي من جهة تظهر ليلاً وتختفي نهاراً وهذا طبعاً أمر عجيب، وكذلك ساهمت في إحداث تغيير لدى الجد "وان تيهاي"، عندما أمدته بطاقة جنسية مثيرة.

وحتى أمر العشبة نجده خلق حيرة وتردداً لدى الراوي، ولدى "وان تيهاي" في البداية عندما اكتشفها في الوادي وأكل منها، فقد أعطته قوة غريبة وحركت فيه الغريزة:

"....بحث عن العزاء لداء المعتزلة، فوجده في العشبة.

جرّبها تحايلاً على الوحشة في البدء، ثم اكتشف مزاياها الخفية فجففها، وهرسها، ودسّها في صرة تحت الكمّ كما تدس كل التمائم. وجدها أول مرة في السفح الوضيع ووجدها مرة أخرى في شقوق حجارة سخية تفترش الحضيض وجدها في موسم صيفي أشعل النيران في ظلمات الليالي...فمن أين جاءت النبتة الخفية في واد تكاد تحترق فيه الحجارة؟ وهل لها نصيب من سرّ شجيرات الرتم التي لا تشحب، ولا تتيبس، ولا تحترق حتى بعد احتراق الحجارة؟[13].

فالراوي/السارد وصف هذه العشبة، ثم تساءل عن سبب وجودها في هذا المكان الذي اعتبره مكاناً صعباً لوجود النباتات. ولما جرّب "وان تيهاي" هذه العشبة وعرف مفعولها. طلب من خادمه "آفر" البحث عنها وإحضارها له. لكن الخادم لم يجدها في الوادي. فخرج "وان تيهاي" للبحث عنها بنفسه، فلم يجدها هو الآخر في النهار. ثم عاد ليلاً ليبحث عنها فوجدها:

"في يوم آخر تناقص الزاد فاحتاج إلى مزيد. أمر أحد العبيد أن يأتيه بنصيب جديد من الوادي. غاب الرسول زمناً، ثم عاد وأخبره بأن لا وجود في الوادي غير الحجارة في السفوح، والطين في القيعان، وغمر كثير من سراب الظهيرة. اقترب منه غاضباً توعده بصرامة: "امض إلى السفوح. فتّش الشقوق لقد رافقتني البارحة، ورأيت بعينيك أين استخرجت العشبة. فهل تضيع الموقع بين يوم وليلة أيها الأبله؟" ذهب المملوك. عاد بعد زمن. هز عمامته الكئيبة، البائدة، علامة النفي"[14].

لم يقتنع "وان تيهاي" بإجابة الخادم. فخرج بنفسه يبحث عن العشبة:"

"في الوادي فتش عن العشبة منذ الظهيرة حتى الأصيل. ولكن العشبة اختفت من أركان الواد، وتبدت من شقوق السفوح اهتدى إلى أثر جولة البارحة، وعثر على المكان الذي انتزع منه حاجته من وجبة الليلة الفائتة، ولكن لا أثر تبقّى للعشبة كأنها انقطعت. كأن نيران القيلولة حرقتها حرقا فتبدد حتى رمادها وذرته رياح الجنوب. أو كأنها لم تكن أصلاً ولم توجد، وما تناوله لم يكن إلا رؤيا من رؤى الليالي شبح من أشباح الخفاء فكيف تصير العشبة وهماً إذا كان قد عاقرها مراراً،

واعتصرها بين أصابعه، وتلذذ برحيقها، وطاف أبعد البلدان في كل مرة؟ كيف يتحول اليوم هباءً، ما لمسه في ليل أمس لمس اليد؟

يئس فعاد إلى الخباء.

انتظر حلول العتمة وخرج إلى الوادي للقيام بالجولة الليلية.

لم يصدق عندما وجد العشبة في المكان نفسه الذي فتشه وحرثه مع عبيده في النهار"[15].

هذا الأمر يثير الحيرة والتردد، ويثير أيضاً تساؤلات عن طبيعة هذه العشبة التي تظهر ليلاً وتختفي نهاراً، وكأنها فعلاً لها مفعول الجن مثلما وصفتها الفتاة الحفيدة. وكأن هذه العشبة تقترب من عشبة الخلود التي كان يبحث عنها البطل "جلجامش" في ملحمته العظيمة. لذا نجد هذه الرواية تتناص مع ملحمة "جلجامش" من ناحية وجود العشبة في النص، فهذه العشبة هي التيمة الأساسية في النصين.

بالإضافة إلى ذلك، نكتشف مع الراوي أمراً غريباً وهو أن العبد الحكيم "بوبو" اعترف ل"وان تيهاي" بأنه من صلب ابنة اقترنت بوالدها. وهو سبب خلوده إلى حد الآن. وهذا السر كان سبباً كافياً لقتل "وان تيهاي" ل"بوبو".

5.تعجيب الشخصيات في رواية "عُشبُ الليل":

يركّز "إبراهيم الكوني" في مجمل رواياته على بناء شخصياته بناءً محكماً يليق بمستوى النص الذي يكتبه. وفي الآن نفسه نجده يحيط شخصياته بعوالم سحرية أسطورية. ومن خلال النصوص السردية المتنوعة نجد الروائي إبراهيم الكوني "يفاجئنا(....) بعالم عجيب يأسرنا من الوهلة الأولى بغرابته وفرادته وجدّته، عالم مفعم بالأساطير المتناقلة عبر الأجداد والشيوخ والعرافين، وبشخصيات أقل ما يقال عنها أنها "شخصيات موجودة على حافة الحياة دائماً، وكأنها في صراع أبدي مع الموت، لا وقت لها للتفكير إلاّ بما يحفظ استمرار حياتها، ويحصنها من مواجهة الفناء. كل شيء في المجتمع الصحراوي آكل أو مأكول وكل شخص فيه قاتل أو قتيل ، حياة أو موت، ، وحين يكون الخيار الوحيد أمام الشخصية هو الوجود في رؤية مكانية منبسطة مشغولة بمقاومة الموت، فإن الزمن نفسه تتراجع أهميته، بوصفه تتابعاً خطياً الى حد الاختفاء"[16]. وهذا ما نجده في رواية "عشبُ الليل"، حيث بدت لنا شخصية "وان تيهاي" شخصية عجائبية يلفها الجو الأسطوري نظير أفعالها وسلوكاتها التي كانت تصدر عنها. وأيضاً شخصية العبد الحكيم "بوبو"، وكذلك "العرافة" باعتبارها شخصية تحيل إلى الأمور السحرية والشعوذة والأمور الغيبية. مما يجعل هذه الشخصيات قريبة جداً من عالم العجائبي والغرائبي. يقول الناقد التونسي "البشير الجلجلي" عن بناء الشخصيات عند "إبراهيم الكوني":"...وقد قطع الكوني مع الشخصيات الأنموذجية التي عرفتها الرواية الغربية (الشخصية البرجوازية) أو الرواية العربية(البطل المنتصر دائما) ليخلق شخصيات متفاعلة مع الراهن الحضاري معبرة عنه بصيغ واقعية أحياناً وعجائبية أحياناً أخرى"[17]. وهذا هو التفرد الذي امتاز به إبراهيم الكوني، حيث تمكن من بناء شخصيات روائية مختلفة جداً عمّا ألفته الرواية العربية لحد الآن. فقد ألبس شخصياته لبوساً أسطورية وأجواءً عجائبية.

1.5.شخصية"وان تيهاي": يدعى بلغة طوارق "سليل الظلمات" أو "سليل الأدغال". شاعر تغنى بالسواد والخفاء. كان هذا البطل الذي ورث إماءً وأقناناً وقطعان إبل، عُرف بين القبائل باستهتاره في شبابه، حيث اقترن ثلاث مرات. في المرة الأولى هربت القرينة ذات الحسن والنسب في اليوم الرابع من القران مع تكتمها عن سبب هروبها. أما القرينة الثانية التي زعم أهل القرية بأنها سليلة الجان لثرائها وعدم معرفة أصلها، فقد استجارت بزعيم القبيلة لحمايتها.

يروي السارد أن "وان تيهاي" كان متعلّقاً منذ الصغر بالظلمات فكان يخرج ليلاً متسكعاً في الوديان. وذات مرة استقر على حافة وادي سمّاه العابرون بوادي الجن. فكان يحاور الكائنات المجهولة ويتعارك معهم بألفاظ حرّمها الناموس على القوم. وفي عالم الظلمات عرف سر العرافين العميان وسبب تفوقهم على قرناء البصر. وفي هذا الوادي اقترن للمرة الثالثة، بإحدى الإماء وعاش معها على ما يرام . ومن خلال بصيرة الخفاء بدأ بتأمل زيف ومكائد حياة الإنسان.

من خلال هذا الوصف، نلاحظ أن شخصية "وان تيهاي" شخصية عجائبية في تكوينها وغريبة في أفعالها وسلوكاتها. فهي حسب الرواية تنتمي إلى أهل الخفاء(الجان). ومن ثم فإن صفاتها تبدو غير مألوفة وغير معقولة أيضاً. وبالتالي فإن تفسير طبيعة أفعالها وسلوكاتها تكون فوق–طبيعية. وهذا ما تجلى بشكل واضح في الرواية، حيث نجد البطل "وان تيهاي" يقوم بأفعال غير طبيعية منها خرق الناموس، ومحادثته لأهل الخفاء، وحصوله على عشبة الخلود في الوادي ليلاً دون غيره من أهل سكان قرية "واو".

2.5.العبد الحكيم"بوبو": هو الذي ربى البطل ووالده وجدّه. إنه يتصف بالمكر والدهاء والخبث الذي يسعى إلى توريثه، من خلال مساعدته في المكيدة ضد نبلاء القبائل الذين استنكروا عليه كسر ناموس أعرافهم بالزواج بأمَةٍ(التمييز العرقي والطبقي). قتله في النهاية "وان تيهاي" بعدما أسرّ له سبب خلوده عندما اعترف له بأنه من صلب ابنة اقترنت بأبيها.

3.5.العبد آفر: إنه العبد الملازم لسيده "وان تيهاي". اختاره هذا الأخير قريناً لابنته لكي يغطي على جرائمه، ويقوم بقطع لسانه وعضوه التناسلي، كي لا يشيع الخبر، وأيضاً كي لا يقترن بابنته. فقد كان هذا العبد واجهة فقط بالنسبة للجد "وان تيهاي".

4.5.العرّافة: تسمّى "الكاهنة"، وتسمّى أيضاً "عذراء المعبد". هي شخصية تمتهن السحر وقراءة الغيب. هي تحت إمارة "وان تيهاي". لقد حاولت إقناع الحفيدة بالبقاء في البيت، وعدم كشف المستور (سر اعتداء الجد عليها).

إنّ العرافة تتصف بالسمات العجائبية لكونها أولاً في الرواية هي القائمة على الضريح (ضريح الآلهة تانس)، وأيضاً بوصفها عرّافة تقوم بأفعال وسلوكات غير طبيعية، كالسحر والشعوذة وقراءة الغيب.وهي المكلّفة بخدمة الزائرين للمعبد.

6.فضاء العجائبي في رواية "عُشبُ الليل":

إنّ القارئ لروايات "إبراهيم الكوني" يأسره الفضاء الذي تجري فيه الأحداث. فالروائي منذ البداية يُدخِل المتلقي في عالم أسطوري، يتخلله فضاء الصحراء بأمكنتها العجيبة. حيث نتتبع وقع الأحداث ضمن فضاء شاسع منفتح على عالم الجان

والسحر والشعوذة والأمور الغريبة. "فأعمال الكوني عامة تسيّج فضاء الصحراء ولكن المفارقة أنه يتعالى عن التحديد الجغرافي(بين جبال كانو إلى تيبكتو) ليحدث جغرافية جديدة لا تكون إلاّ بالتخييل...وبين المرجعي والمتخيّل يطفو العجائبي وهو يحوّط المكان من كلّ جهة وخاصة جهة الفضاء الميثولوجي وجهة الفضاء الخارق. وهما فضاءان استغلهما الكوني لكسر الحدود الجغرافية الوهمية في ذهن الصحراوي الخائف دائماً من "جبروت الصحراء" فأقحم تقنية العجائبي كاشفاً أسراره لتتعرى الصحراء أمام حقيقتها. فولّد الصراع بين سكان الصحراء والمكان أسطورة الفضاء. مما غذى في ذهن الصحراوي حكايات تشكلت في قصص يرويها إبراهيم الكوني في رواياته العديدة"[18]. وعبر النصوص الروائية التي كتبها نجد إبراهيم الكوني "يصوّر لنا(...) الصحراء ومجتمع الطوارق في جو سردي تخيلي مليء بالأساطير. و"هي أساطير تومض ثم تنطفئ، لكنها تنبض بالحيوية والتألق، ومحورها العلاقة الملتبسة بين الإنسان والإنسان أو بين الإنسان المتوحد والحيوان، ولو رتبت هذه الأساطير على وفق أنساق محددة، لشكّلت بمجموعها ما يمكن الاصطلاح عليه ب"ميثولوجيا الطوارق"[19].

ففي رواية "عشبُ الليل" يؤطر إبراهيم الكوني أحداث روايته بواحة "واو". وهي الواحة الموجودة في الصحراء. حيث نجد الروائي يقوم بأسطرة المكان من خلال النزوع نحو سرد أحداث تبدو غريبة وغير مألوفة. فالراوي/السارد عند حديثه عن حادثة اعتداء الجد "وان تيهاي" على حفيدته، وخروج هذه الأخيرة من البيت وقرار هروبها، وكشفها للفعل الشنيع الذي قام به الجد. ينتقل السارد بعد ذلك إلى الحديث عن ماضي الجد "وان تيهاي" وضمن استرجاع هذا الماضي ينقلنا السارد إلى فضاءات عجيبة منها "وادي الجن" الذي كان مداوماً عليه الجد، وهو المكان الذي ظهرت فيه "العشبة" ليلاً واختفت نهاراً: "أردت أن أقول أيضاً إن الصحراء تستطيع أن تنبت نبتها ليلاً وتحجبه نهاراً، أو تطلعه نهاراً، وتحجبه ليلاً. مسلك الصحراء عجيب يا مولاي، لأن الصحراء نفسها أعجوبة. الصحراء أكبر أعجوبة يا مولاي"[20].

تمثّل الصحراء الفضاء الأثير الذي يحب إبراهيم الكوني التطرق إليه في نصوصه السردية، لأنه الفضاء الأرحب للأسطرة والعجائبية والأمور غير المألوفة. وهو الفضاء الأوحد الذي يبرر التخييلات التي يدرجها الروائي في نصه. لذا نجد إبراهيم الكوني يركّز عنايته على الصحراء في جميع نصوصه السردية "بوصفها مكاناً يرصد حياة الطوارق بكل ما تحمله هذه الحياة من معان ودلالات"[21]، متخذاً منها الفضاء الرئيس لسبر أغوارها والنزوع نحو الانفتاح على علاقة الإنسان والحيوان بالصحراء هذا من جهة، ومن جهة أخرى لغرض تبيان شساعة فضاء الصحراء وأحداثها الأسطورية التي تزخر بها.

7.عجائبية الزمن في رواية "عُشبُ الليل":

يلعب الزمن دوراً أساسياً في النص الروائي لكونه العنصر المؤطر لأحداث الرواية وشخصياتها. فهو الأداة التي تحدد الضوابط التي تحكم طبيعة الأحداث ووقوعها خلال زمن معين. "والزمن يحدّد بشكل كبير طبيعة الرواية وشكلها"[22].

ولكن الزمن لدى "إبراهيم الكوني" يتجاوز الزمن العادي ليصبح زمناً أسطورياً من خلال طبيعة أحداثه وأيضاً طبيعة شخصياته. فالزمن في رواية "عشبُ الليل" هو زمن أسطوري يتأرجح بين زمن الماضي/ وزمن الحاضر. لقد وظّف "ابراهيم الكوني" تقنية تداخل الأزمنة في سرد الأحداث، حيث يستعمل زمن الماضي والحاضر والمستقبل:

"هام في الخلاء. رافق الرعاة الى المراتع البعيدة، ورابط في مفترقات طرق القوافل القادمة من بلا الأدغال، أو العائدة من الشمال في طريقها الى ممالك الجنوب....يختلي بأرباب القوافل على انفراد. يغويهم بالكراء السخي حتى يبوحوا له بسر الرفقاء"[23]. فنلاحظ الكاتب بدأ بالزمن الماضي ثم الزمن الحاضر ثم يختمها بالزمن المستقبل. وتتكرر هذه التقنية في العديد من الفصول. مما يشي بأن الروائي يتفنن في توظيف الزمن، ويتلاعب في طريقة استعماله في عملية السرد.

إضافة الى ذلك نجد ابراهيم الكوني استعمل كلمات عديدة تدل على الأزمنة منها: الليلة، الفجر، ساعة، الغد، الصباح، اليوم...وهذه الصيغ تتعدد وتتنوع حسب طبيعة الحدث. ولكن يبدو أن زمن الليل هو أكثر توظيفاً في النص نظراً لطبيعة البطل الذي كان يحبذ الليل، وجلّ مغامراته حدثت ليلاً. وأيضاً بسبب التسمية التي يحملها "سليل الظلمات". ومما يلاحظ عن عنصر الزمن أنه مرتبط بالمكان والشخصية، فنجد أحياناً الكاتب يعمد إلى تعجيب الزمن والمكان من خلال أداة السرد. فطريقة سرد الأحداث من قبل السارد تتميز بنوع من السحرية والعجائبية في بناء متخيّل يقوم على الحدث العجائبي في زمن ومكان عجائبيين بعوالمهما القائمة على الخرافة والسحر والأجواء ما فوق–طبيعية، مثلما وقع للبطل "وان تيهاي" في "وادي الجن"، وحصوله على "عشبة" تعطي قوة وغريزة جنسية. وكذلك محادثته لأهل الخفاء(الجن).

8.خاتمة: شكّلت رواية "عشبُ الليل" أنموذجاً واضحاً لتيمة العجائبي، حيث استطاع الكاتب "إبراهيم الكوني" صياغة رواية ممتعة من حيث طريقة السرد المعتمدة، وأيضاً من حيث الموضوعة التي آثر معالجتها في هذا النص. فنجد أن الأجواء العجائبية كانت السمة الأبرز في هذا النص، اتخذها الروائي ليطرح مسألة فكرية بالدرجة الأولى لدى أهل "الطوارق". الذين امتازوا بسنّ فلسفتهم في الحياة، وتقديم عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم باعتبارها نواميس ثابتة تؤطر الحياة الاجتماعية لهم في فضاء الصحراء.

يعدّ العجائبي في هذه الرواية رافداً من روافد الحداثة والتجريب التي اعتمدها الروائي "إبراهيم الكوني" في معظم نصوصه السردية لطرح تصوراته الفلسفية والفكرية التي لا زالت تشغل باله، خصوصاً ما تعلّق بسكان "طوارق" باعتبارهم ساكنة تعيش على هامش المجتمع. وما توظيفه لأساليب العجائبي المليء بالسحر والخرافات والشعوذة ما هي إلاّ دلالات ومعان اتخذها الروائي لرصد حياة "الطوارق" وتقديم صورة واضحة عنهم، ونقل حياتهم بعفوية إلى القارئ. ضمن قصة محبوكة بشكل ممتع ومشوّق، ترصد نماذج من هؤلاء السكان عبر شخصيات واقعية متعددة ومختلفة، منها: "وان تيهاي"، الحكيم "بوبو"، العرّافة، العبد "آفر"، والفتاة الحفيدة.

الهوامش:

1.البشير الجلجلي: العجائبي في أعمال إبراهيم الكوني الروائية، منشورات سوتيميديا للنشر والتوزيع، ط01، (تونس)2020 ص19.

2.محمد رياض وتار: توظيف التراث في الرواية العربية، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، ط01، دمشق(سوريا)2002 ص221.

3.بوشوشة بن جمعة: الرواية الليبية المعاصرة سيرورة التحوّلات ومعجم الكتّاب، منشورات المغاربية للطباعة والإشهار، ط01، (تونس)2007، ص30-31.

4.دحماني حليمة: الفضاء المتخيّل في كتابات إبراهيم الكوني(التّبر، نزيف الحجر، عشبُ الليل) أنموذجاً، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، تصدر عن مركز الحكمة للبحوث والدراسات، الجزائر، ع2017/09 ص299.

5.الرشيد بوشعير: مساءلة النص الروائي في السرديات العربية الخليجية المعاصرة، منشورات هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، ط01، (الإمارات العربية المتحدة)2010 ص15.

6.إبراهيم الحجري: الرواية العربية الجديدة(السرد وتشكل القيم)، منشورات دار النايا، ط01،(سوريا)2014 ص13.

7.ينظر سنوسي شريّط: استراتيجيات التجريب في الرواية المغاربية، منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، ط01، فاس(المغرب)2016 ص169.

8.فخري صالح: في الرواية العربية الجديدة، منشورات دار العين للنشر، ط01، القاهرة(مصر)2010 ص181.

9.براخلية ربيعة: تجليات العجائبي في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست(الجزائر)، المجلد09، ع2020/02 ص102.

10.إبراهيم الكوني: عُشبُ الليل، منشورات دار الملتقى للطباعة والنشر، ط02، بيروت(لبنان) (د ت)، ص13.

11.المصدر نفسه، ص15.

12.مليكة سعدي: الصحراء والأسطورة في روايات إبراهيم الكوني(مقاربة أنثروبولوجية)، منشورات النشر الجامعي الجديد، ط01، تلمسان(الجزائر)2018 ص186.

13.إبراهيم الكوني: عُشبُ الليل(مصدر سابق)، ص40.

14.المصدر نفسه، ص42.

15.المصدر نفسه، ص44/43.

16.طانية حطاب: إبراهيم الكوني ومشروعه السردي- من طوق الصحراء الى إشعاع العالمية-، مجلة رؤى فكرية، تصدر عن مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة سوق أهراس(الجزائر)، ع2016/04 ص124.

17.البشير الجلجلي: العجائبي في أعمال إبراهيم الكوني الروائية(مرجع سابق)، ص63.

18.المرجع نفسه، ص73.

19.طانية حطاب: إبراهيم الكوني ومشروعه السردي(مرجع سابق)، ص124.

20.إبراهيم الكوني: عُشبُ الليل(مصدر سابق)، ص40.

21.سنوسي شريّط: النزوع الأسطوري في الرواية المغاربية المعاصرة، منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، ط01، فاس(المغرب)2018 ص81.

22.علي مفتاح راشد: تجليات الزمان والمكان في رواية ما بعد الحداثة رواية إبراهيم الكوني عشبُ الليل(نموذجا)، مجلة الموروث، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم(الجزائر)، العدد2014/04 ص247.

23.ابراهيم الكوني: عُشبُ الليل(مصدر سابق)، ص18.

قائمة المصادر والمراجع:

1.إبراهيم الكوني: عشبُ الليل، منشورات دار الملتقى للطباعة والنشر، ط02، بيروت(لبنان) (د ت).

2.إبراهيم الحجري: الرواية العربية الجديدة(السرد وتشكل القيم)، منشورات دار النايا، ط01(سوريا)2014.

3.بوشوشة بن جمعة: الرواية الليبية المعاصرة: سيرورة التحوّلات ومعجم الكتّاب، منشورات المغاربية للطباعة والإشهار، ط01(تونس)2007.

4.البشير الجلجلي: العجائبي في أعمال إبراهيم الكوني الروائية، منشورات سوتيميديا للنشر والتوزيع، ط01(تونس) 2020.

5.براخلية ربيعة: تجليات العجائبي في رواية "نزيف الحجر" لإبراهيم الكوني، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المركز الجامعي لتامنغست(الجزائر)، المجلد09، ع2020/02.

6.دحماني حليمة: الفضاء المتخيّل في كتابات إبراهيم الكوني(التّبر، نزيف الحجر، عشبُ الليل) أنموذجاً، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، تصدر عن مركز الحكمة للبحوث والدراسات، الجزائر، ع2017/09.

7.طانية حطاب: إبراهيم الكوني ومشروعه السردي- من طوق الصحراء الى إشعاع العالمية-، مجلة رؤى فكرية، تصدر عن مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة سوق أهراس(الجزائر)، ع2016/04 ص124.

8.مليكة سعدي: الصحراء والأسطورة في روايات إبراهيم الكوني(مقاربة أنثروبولوجية)، منشورات النشر الجامعي الجديد، ط01، تلمسان(الجزائر)2018.

9.سنوسي شريّط: النزوع الأسطوري في الرواية المغاربية المعاصرة، منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، ط01، فاس(المغرب)2018.

10.سنوسي شريّط: استراتيجيات التجريب في الرواية المغاربية، منشورات مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية، فاس(المغرب)2016.

11.علي مفتاح راشد: تجليات الزمان والمكان في رواية ما بعد الحداثة رواية إبراهيم الكوني عُشبُ الليل(نموذجا)، مجلة الموروث، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم(الجزائر)، العدد2014/04.

12.فخري صالح: في الرواية العربية الجديدة، منشورات دار العين للنشر، ط01، القاهرة(مصر)2010.